تفسير
سورة الشمس

تفسير سورة الشمس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿والشمس وضحاها (١) والقمر إذا تلاها (٢) والنهار إذا جلاّها (٣) والليل إذا يغشاها (٤) والسمآء وما بناها (٥) والأرض وما طحاها (٦) ونفس وما سواها (٧) فألهمها فجورها وتقواها (٨) قد أفلح من زكّاها (٩) وقد خاب من دسّاها (١٠) كذّبت ثمود بطغواها (١١) إذ انبعث أشقاها (١٢) فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها (١٣) فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها (١٤) ولا يخاف عقباها (١٥)﴾.

(١)

في عمود السورة

اعلم أن عمود هذه السورة هو إنذار قريش ورئيسها الأشقى بما كذبوا الرسول في أمور التوحيد والمؤاساة والجزاء. وإنما لم يصرح بهذه الأمور بل اكتفى بذكر طغيانهم واجترائهم في جنب الله.

١- لما ذكرها في السورة السابقة والتالية.

٢- و لما جاء مرارا في القرآن.

٣- ولما دلت عليها شهادات هذه السورة، كما ستعرفها.

فقوله تعالى: ﴿كذبت ثمود بطغواها﴾ [الآية/١١]، وإن لم يصرح بأي أمور كذبوا ولكنها معلومة. فإن ثمود كذبت صالحا فيما دعاهم إليه من الإيمان بالجزاء والتوحيد والمؤاساة.

ولأن السورة اعتنت بالإنذار، فجاءت به واضحا صريحا و لم تخلطه

بما زاد عليه ليجمع همتهم إليه خاصة، فيسكن به جماحهم ويلين عريكتهم. ولذلك صرح بأمر واحد جامع لجسارتهم وخسارتهم.

فقوله تعالى: ﴿فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها﴾ [الآيتان/١٣-١٤] يبين أن رسولهم خوّفهم بالعذاب إن طغوا ومسوا الناقة بسوء إظهارا لطغواهم واستكبارهم. فضرب الله تعالى مثلا لقريش، وقدم لهم قولا يحذرهم عماهم فاعلون برسولهم لعلهم ينتبهون. ولما قلنا تفصيل في: (٧) و (٨).

(٢)

في ربط السورة بالتي قبلها والتي بعدها

ذكر في السورة السابقة أصحاب الميمنة والمشأمة الذين بدلوا نعمة الله وأبطلوا مقصد أمانته وفرائض بيته من المواساة، فشقوا به أكبر شقوة لطغيانهم. فضرب لهم مثلا في هذه السورة من قصة أشقى الناس الذي جلب عليهم الهلاك، لما اجترأ في جنب الله. فقريش أولا هدموا مقصد بيته الحرام، وثانيا سيهمون برسوله المكرم مثل ثمود فيشقون به كما شقوا بكعبته.

ثم بعد هذا الإنذار العظيم رجع إلى أمر المؤاساة، وبين حال المعطي الأتقى والبخيل الأشقى. ومآل أمرهما في السورة التالية، كما ستعرف في تفسيرها.

(٣)

نظم السورة وربط أجزائها إجمالا

وإن تأملت نظم هذه الآيات المنذرة رأيت أن السورة خمس عشرة آية كلها شواهد على الجزاء. فالعشر الأولى شهادات عامة من دلائل الفطرة، والخمس الباقية شهادة تاريخية مسلمة.

وهذا أسلوب عام في القرآن - يجمع الله تعالى آيات الفطرة مع آيات الوقائع في الأمم الخالية، سواء كان على أسلوب القسم أو غير القسم. فإن القسم ليس إلا ذكر الآية، كما بيناه في كتاب "أقسام القرآن".

ومن نظائر شهادة آيات الفطرة على نهج القسم ثم شهادة التاريخ ما جاء في أول سورة الفجر. فأشهد الله تعالى الفجر، وليال عشر، والشفع والوتر، والليل إذا يسر. ثم أشهد بما وقع على الذين طغوا في البلاد من عاد وثمود وفرعون.

وهكذا ما جاء في سورة والذاريات من شهادة آيات الفطرة، ثم ذكر شهادات التاريخ مما وقع على قوم لوط وفرعون وعاد وثمود وقوم نوح.

وهذا النظم على نهج الآية بغير أسلوب القسم ترى في قوله تعالى: ﴿أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات (أي على الجزاء والعدل وقدرته تعالى) أفلا يسمعون (أي هذه الأنباء) أولم يروا (أي إذ لم يسمعوا ذلك فهل لم يروا) أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون. ويقولون متى هذا الفتح (أي الفرق والفصل بين الحق والباطل) إن كنتم صادقين﴾ [سورة السجدة/٢٦-٢٨].

فذكر ههنا الجزاء أولا من الوقائع التاريخية، ثم ذكر الآية على البعث والربوبية من وقائع الفطرة.

وهكذا في سورة القمر ذكر آية إهلاكه الأمم بعد آية الفطرة على لزوم الجزاء، فقال: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر . وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر. وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر. ولقد

جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر. حكمة بالغة فما تغن النذر﴾ [سورة القمر/١-٥].وهكذا في سور أخر، كما فصلنا وجوه الإشهاد في تلك السور.

وأما وجه الإشهاد بالشمس والقمر، والنهار والليل، والسماء والأرض فنذكر أولا عموم هذا الأسلوب، ثم نبين وجه الإشهاد.

(٤)
عموم أسلوب الإستشهاد بالشمس والقمر والنهار والليل والسماء والأرض

فاعلم أنه ليس من شئ إلا فيه آيات على طرف من صفاته تعالى، كما قال: ﴿وإن من شئ إلا يسبح بحمده﴾ [سورة الإسراء/٤٤]، أي يدل على صفاته العليا. ولكنه تعالى يذكر آياته العظيمة الجليلة العامة، فإن القلوب والعقول لا يمكنها الغفلة عنها إلا إذا عميت وصمت. فيذكر كبار خلقه من الشمس والقمر والليل والنهار والسماء والأرض. ثم ربما يذكر ما دونها أيضا لنعلم أن آياتها غير محصورة.

قال تعالى: ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف اليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلا﴾ [سورة آل عمران/١٩٠-١٩١]. أي يستدلون بما يرون من آثار الحكمة فيها على كونها غير باطل ذاهب إلى غير أجل وعدل وحكمة، فيؤمنون بحكمته فيسبحونه، وبالجزاء فيستغفرونه، كما دل عليه قولهم: ﴿سبحانك فقنا عذاب النار﴾ [سورة آل عمران/١٩١] فهذا استدلال على الحكمة والجزاء.

ثم ربما يستدل بما أودع العالم من آية الرحمة العامة على كونه ربا واحدا، كما قال: ﴿وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾ [سورة البقرة/١٦٣]. أي إلهكم واحد ورحمن. ثم قال مستدلا: ﴿إن في خلق السماوات والأرض، واختلاف اليل والنهار، والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السمآء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض، لآيات لقوم يعقلون﴾ [سورة البقرة/١٦٤]. فبعد هذا الاستدلال نبه على شناعة من يشرك بالله مع ظهور آيات كثيرة، فقال: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله، والذين آمنوا أشد حبا لله﴾ [سورة البقرة/١٦٥].

والقرآن مفعم من أمثال هذا النمط العالي. والنظر فيها لا يترك ريبا في أنها حجج على التوحيد وغيره من صفات الكمال. ومنها يثبت القيامة.

ثم صرح القرآن بكونها حجة بالغة وآيات دالة، كما قال تعالى بعد الاستدلال على التوحيد بالنجوم والقمر والشمس: ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم﴾ [سورة الأنعام/٨٣]. أو كما ذكر محاجة إبراهيم وتبكيته الملك الكافر مستدلا بتسخير الله تعالى الشمس. وجعل ذلك من أجلى البديهيات حتى قال بعد ذكر خلقة الأرض والسماء مستدلا على التوحيد والجزاء ﴿: فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ [سورة حم السجدة/١٣]. أي هذا أبلغ الحجج. فإن لم يؤمنوا بها فلا يبقى إلا أن ينتظر لهم عذاب كعذاب عاد وثمود. وأمثال ذلك كثيرة.

فتبين لنا من القرآن أن لنا في الشمس والقمر، واليل والنهار، والأرض والسماء لآيات على التوحيد والرحمة والعدل والجزاء والبعث. وقد ذكرنا من الشواهد ما فيه كفاية ونزيد في الفصل الآتي إن شاء الله تعالى.

(٥)

شهادات فطرية ظاهرة وباطنة على المعاد وسوء عاقبة الطاغين

لاحاجة إلى ذكر دلالة الشمس والقمر وغيرهما على أمور قد ذكرناها فيما مر... ولكن نوجهك إلى جهة خاصة، وهي ما نجد من استعمال أسلوب المقابلة ههنا. فإن الله تعالى في هذه الشهادات ذكر المتقابلين والزوجين. وفي ذلك لنا آية عظيمة كما صرح به القرآن، فقال: ﴿ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون (أي انه الخالق الحكيم المصلح الأزواج بعضها لبعض، والقاهر على كلها) ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين (فإنه ربكم وإلهكم، فإليه مصيركم) ولا تجعلوا مع الله إلها آخر إني لكم منه نذير مبين﴾ [سورة الذاريات/٤٩-٥١] (أي هو ربكم وحده).

وقال تعالى: ﴿والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى. وما خلق الذكر والأنثى. إن سعيكم لشتى﴾ [سورة اليل/١-٤]، ثم ذكر جزاء سعيهم المختلف. فساق هذا الكلام بحيث ينبهنا على ما أودع في خلقه من التقابل الذي جعله سببا للسعي والجهد وتربية النفس التي تكسب الشرف بالمجاهدة بين المتضادين. وبسط الكلام في تفسير "والتين". وههنا إنما نذكر ما يتعلق بهذه السورة خاصة.

فاعلم أن الله تعالى خلق كل شئ كاملا مستقلا من جهة، وناقصا محتاجا من جهة أخرى. وجعل الحسن والحكمة في جمعهما. ثم إنه تعالى جعل أمورا متقابلة تحت قوى متنازعة. فوكل قوى الحياة والموت والكون والفساد، أعمالها بحيث أنها توهم أن في العالم تخاصم أرباب. وبهذا ضلت المجوس، والوثنيون أضل منهم. ولكن التفكر في مصالح أخرجها الله تعالى من بين تنازع الأزواج وتعانقهما يهدينا إلى أن على العالم ربا واحدا قاهرا. ولولاه لفسدت السماوات والأرض بين تصادم المتضادين، كما

قال: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله (أي الله الواحد) لفسدتا﴾ [سورة الأنبياء/٢٢]، وقال: ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض﴾ [سورة المؤمنون/٩١].

فأخرج الله تعالى المصالح من زوجين وضرب بعضهما ببعض حتى يتما أمرا فوقهما. فإن الشر المحض في خلقه محال كما أن الكمال المطلق لله تعالى وهو الخير المحض. فالمتضادان هما المتعاونان. فإن الله تعالى ركب خلقه فجعله شخصا واحدا ذا يمين ويسار، وليل ونهار، وأرض وسماء، وظل و حرور، وحزن وسرور، وبر وفجور.

وبعبارة أخرى أنه تعالى زوج بعض خلقه ببعض. فزوج العلل بالمعلولات، والطبائع بالإرادات فقدر وهدى، والقوى بالآلات، والأجساد بالنفوس، والأعمال بالجزاء، والدنيا بالآخرة، كما قال: ﴿فسبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾ [سورة يس/٣٦]. فدل على سعة نفاذ هذه السنة، وأنها شاهدة على عظمة الرب ورحمته، فتحملنا على تسبيحه.

فمن قصر النظر على أحد الزوجين جهل بحسن خلق الله. ومن رأى الدنيا وغفل عن المعاد رآها عقيما شوهاء، وارتاب في صفة خالقها الحكيم فأنكر بالرب الرحيم. و لم تطمئن نفسه بما يرى في العالم من الظلم والفجور. وبعض الكلام في تفسير سور أخر من المحكمات القصار، فليكفنا هذا ههنا.

والآن انظر في قوله تعالى: ﴿والشمس﴾ إلى قوله تعالى: ﴿دسّاها﴾ [الآيات/١-١٠] تبين تأويلها. وهو أنه تعالى كما جعل العالم الجسماني ذا طرفين: ضياء وظلمة وعلو وسفل، وجعل في كل طرف مصلحة. وفي جمع الطرفين مصالح أخر من تربية الإنسان، فإنه طحا الأرض وذللها فأنبت منها

متاعا وبلغة، وغشى الليل فجعلها سباتا وسكنا. فكذلك في عالم النفس جعل الليل والنهار والأرض والسماء، وجعل فلاحها في هذا التدبير.

ثم منه نعرف حكمه القاهر وحكمته البالغة ورحمته السابغة، كما قال تعالى: ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا وهو الذي جعل اليل و النهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا﴾ [سورة الفرقان/٦١-٦٢]. أي أراد أن يذكر أن للعالم خالقا وربا ومدبرا، وأراد أن يشكره على ما أجرى الأمور على نهج الرحمة.

وهكذا قوله تعالى: ﴿الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لفي خلق جديد﴾ [سورة الرعد/٢-٥].

وعلمنا بسياق هذه الآيات وأمثالها أن كل ذلك لتربية النفوس وتزكيتها، فهي اللب في تلك القشور والجوهر في هذه الصخور.

وبما ذكر حالة العالم ثم حالة النفس بإزائها دلنا على أن الله تعالى خلق العالم الظاهر مضيئا ومظلما وعاليا وسافلا، فجعله مرآة للنفس ليتأكد لها ما ألهمت فتكون لها آيتان: ظاهرة وباطنة.

فانظر كيف ذكر الله تعالى آيته في الآفاق، ثم ذكر آيته في الأنفس مطابقة لما في الخارج على أنه هو الخالق الحكيم المدبر. فهدانا إلى التوحيد والمعاد، كما قال: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ [سورة حم السجدة/٥٣].

ثم دل على المعاد أولا بما ذكر من حالة النفس وإلهامها. فأي معنى للفجور والتقوى إن لم يكن جزاء ؟ فإن الفجور هو القبيح المخالف لفطرتها والعصيان لباريها، والتقوى هي طهارة النفس وخشيتها لربها. وهذا الإلهام هو إلهام العبودية والذمة التي تدل على المعاد، كما تجد بيانها في تفسير سورة القيامة

فشهد هذا بنفسه أيضا على الرب المجازي حسب أعمالنا. فهذه شهادات بأمور الفطرة.

وكانت شهادة النفس بديهية، ولكن ربما يذهل عنها الغافلون المنهمكون في عالم الحس، فبدأ بشهادة الآفاق، فأشهد بالشمس والقمر والنهار والليل والسماء والأرض. ثم تخلص تدريجا إلى عالم العقل. وبعد هاتين جاء بشهادة تاريخية مسلمة عند المخاطبين، فهي القسم الآخر من شهادات جامعة لآياته في الآفاق والأنفس. ونتكلم عليها الآن.

(٦)
شهادة تاريخية مسلمة على المعاد

فاعلم أن الله تعالى استشهد عليهم بما علموه يقينا من أحوال الأمم. وذلك بأن قوله تعالى: ﴿كذبت ثمود﴾ [الآية/١١] إلى آخر القصة لم يقع على سمع أهل مكة كما يقع على أسماعنا. فإن ثمود كانت من العرب البائدة، وقد سكنت العرب في مساكنهم واشتهر فيهم ذكرهم وضربوا بهم الأمثال، كما سنذكر. وجاء في القرآن: ﴿وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم﴾ [سورة العنكبوت/٣٨] ومثله: ﴿أنّا دمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون﴾ [سورة النمل/٥١-٥٢]. ومثله: ﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال﴾ [سورة إبراهيم/٤٥].

وأما ذكر العرب إياهم فقال أبو زبيد الطائي:

من رجال كانوا جمالا نجوما فهم اليوم صحب آل ثمود[152]

---

١٥٢ جمهرة أشعار العرب: ٧٣٧ .

وكانت ثمود من بقايا عاد. ولذلك ترى بعضهم ربما يجعلهما قوما واحدا، كما ستمر على بيت لزهير بن أبي سلمى. وكانوا قوما أقوياء. ولذلك قالت الخنساء:

ولاقاه من الأيام يوم   كما من قبل لم يخلد قدار

وقدار، هو أحمر ثمود، عاقر الناقة وكان شديدا جبارا طاغية، رئيسهم وإمامهم كما كان قبله قيل بن عمرو في عاد. قال الأفوه الأودي، وهو جاهلي قديم، يذم أشرار قومه يشبههم بقيل وقدار: رئيسي عاد وثمود:

فينا معاشر لم يبنوا لقومهم
وإن بني قومهم ما أفسدوا عادوا
لا يرشدون ولن يرعوا لمرشدهم
والجهل منهم معا و الغيّ ميعاد
أضحوا كقيل بن عمرو في عشيرته
إذ أهلكت بالذي سدى لها عاد
أو بعده كقدار حين تابعه
على الغواية أقوام فقد بادو [153]

وشهادات الوقائع أوقع في بعض القلوب، لما يرون عيانا آثارها ويسمعون بالتواتر كيف دمر الله المفسدين الغاوين، وتخضع لذلك قلوبهم. فإنهم مطبوعون على أن يسخطوا بالأشرار. وإنما يخفى على النفس سوء عملها لشهواتها وحبالها، ولذلك يتعظون بأحوال غيرهم.

وإنما سمينا هذه الشهادات جامعة لما أنها تذكر ما عامل به النفوس

---

١٥٣ شعراء النصرانية: ٧١ .

ربها حسب أعمالها. كأنه تعالى زجرها وكلمها جهرا وكان إلهامه إياها وحيا خفيا. ثم أبقى آثار زجره للخلف، يمرون على بيوتهم الخاوية، فيتبين لهم كيف فعل بهم. فهذه آيات في الآفاق والأنفس معا.

(٧)

خصوصية ذكر قصة ثمود وأشقاها

قد مر في الفصل الثاني أن موضوع هذه السورة إنذار قريش عموما وأبي لهب خصوصا. أما مناسبة قريش بثمود فإن قريشا كانوا قادة العرب لشرافة منصبهم ورجاحة عقولهم، وهكذا كانت ثمود وهم بقايا عاد. وضربت العرب بهم مثلا، لما تركوا آثار عمارتهم ومصانعهم حتى أن تهدم أمرهم لفساد أخلاقهم

وفي القرآن إشارات إلى ما ذكرنا، قال تعالى: ﴿وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين﴾ [سورة العنكبوت/٣٨].وذكرنا في تفسير سورة والفجر طرفا من تقدمهم في التمدن، ومما جاء من ذكرهم في كلام العرب.

وأما مناسبة أبي لهب بأحمر ثمود وأشقى العرب، فإنه كان رئيس قومه، فأوردهم الهلاك وقاد هم إلى البوار، وهكذا شقي أبو لهب برئاسته. فإن ولاية بيت الله انحازت إليه كلها بعد أبي طالب، وكان شريكه في حياته. فأبطل مقصد البيت من التوحيد والمؤاساة، فدع اليتيم و لم يطعم المسكين، وأبطل ذكر الله والصلاة. فصار قدوة الفجار الطاغين المستكبرين.

ثم خاصم النبي ﷺ لما علم أنه يسخط ببدعته ويصيح على

شناعته. فخاف على إمارته، وأيقن أن هذا النبي لا يتركه حتى يزيل سلطانه ويسلبه ولايته، وجمع منكري قريش على عداوته. وبعض البيان في تفسير سورة الماعون وسورة أبي لهب. فضرب الله مثلا من ثمود وقدارها لقريش وأبي لهبها. فإنهما تشابها خلقا وخلقا واسما ورسما. فخوفهم بما يستحقون من العذاب كأمثالهم من أهل القرى المهلكة. وكثر في القرآن تخويف أهل مكة بهم.

ولولا بركة النبي ﷺ وإيمان طائفة منهم، كما قال تعالى: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم (فإن النبي أمان أمته حتى يتبرأ منهم كما بيناه في تفسير سورة الكافرون) وما كان الله معذبهم وهو يستغفرون﴾ [سورة الأنفال/٣٣] (فإن استغفار طائفة من الأمة يدرأ العذاب عن الأمة كما تعلم من قصة مجادلة إبراهيم عليه السلام حتى أنهم يتبرءون)، ولولا بركة بيت الله الحرام وإجابة دعاء إبراهيم في هذا البلد الأمين لقد حقت كلمة العذاب على قريش. ولكن الله تعالى جعل للمؤمنين "فرقانا" مبينا بعد الهجرة وخروج الصالحين من أهل مكة. فطهر البلد من الطاغين المفسدين في الأرض و لم يهتك حرمة البيت. ولله الحمد أولا وآخرا.

وتفصيل بعض هذه الأمور في تفسير سورة الفيل و الكافرون.

(٨)

إشارة غامضة من جهة كونها خبرا عن الغيب

كانت طغوى ثمود أنهم لم يقنعوا بتكذيب رسولهم وتسفيهه، بل اجترأوا على عقر ناقة الله وحاولوا قتل نبيهم بعدها غرة، كما قال تعالى: ﴿قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون فانظر كيف كان

عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين﴾ [سورة النمل/٤٩-٥١].

وجاء في مكر قريش برسولهم: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ [سورة الأنفال/٣٠].

فتشابه أمر هما. وقد علم الله تعالى من قريش أنهم مريدون بنبيهم كما أرادت ثمود بصالح عليه السلام. وإنما عقروا الناقة أولا لينظروا عاقبته. فإن لم يأخذهم عذاب، كما أخبرهم صالح، قتلوه. فعلم الله ما في صدورهم فأخذهم قبل أن يركبوا أمرا أشنع مما ارتكبوه. فبادرهم عذاب الله وحال بينهم وبين ما كانوا يمكرون.

و لم يذكر ههنا تمام قصة ثمود، وإنما أشار إليها. كما ترى في القرآن كثيرا يشار إلى قصة ليذكروا، كقوله تعالى: ﴿هل أتاك حديث الجنود . فرعون وثمود. بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط﴾ [سورة البروج/١٧-٢٠] فمن يتذكر قصة ثمود بتمامها يرى فيها تعريضا إلى ما ذكرنا من أمر قريش.

وهذا من قسم تقديم قول محكم يكشف عن أمر مكنون عند وقوع الأمر وإتيان تأويله. ولا حاجة إلى التفصيل في أول الأمر بل يكفي ذكر بعض الأمارات حتى إذا وقع الأمر علم المؤمنون والكافرون معا أن وعد الله كان حقا. وصرح بهذا الأصل في الصحف الأولى والقرآن في النذر والبشارات.

(٩)

إشارة أخرى في حق هذه الأمة

ليس من مقصد هذا الكتاب الخوض في الكنايات المكنونة، ولكن

لا بأس بأن نذكر ما يبين عاقبة الطغوى ومنتهى النفس إن لم تردع عن الهوى. فإن هذه الأمة وإن لم تملك كل الهلاك فربما كاد. وما العلم إلا الانتفاع بما علمنا، والاعتبار بأمثال ضربت في كتاب الله تعالى من القوم الأولين.

فاعلم أن أمة اليهود كان من أكبر سيئاتهم قتلهم الأنبياء والصلحاء، كما جاء في صحف أنبياء بني إسرائيل والقرآن كثيرا. جاء في سورة البقرة: ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بأيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ [الآية/٦١]. أي قتل النبيين كان لشدة عصيانهم وعدوانهم.

وأيضا في سورة البقرة: ﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون. وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون﴾ [الآيتان/٨٧-٨٨]. أي لعنوا بالضلال لكفرهم واستكبارهم الذي بعثهم على التكذيب وقتل الرسل.

ثم جاء في سورة آل عمران: ﴿إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم. أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين﴾ [الآيتان/٢١-٢٢]. فههنا بين بالتصريح أن قتل الصلحاء الذين يأمرون الناس بالقسط أمر عظيم عند الله، وليس كقتل أحد من الناس فذكره بعد قتل الأنبياء، والوجه ظاهر. فإن علة كبر هذا الإثم هو العصيان لحكم الله، كما مر آنفا.

والمقت لا يعم أمة إلا إذا دخل أكثرهم، وقعد عن منعه الآخرون. فإن إقامة القسط والغضب له واجب على عامة الأمة. ولذلك ترى

السخط على القاعدين عن القتال. وصرح بهذا الأمر حين أمر الأمة بالطاعة الخالصة لله ولرسوله، فأنزل تعالى في سورة الأنفال: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول (الواو للبيان. فإن الرسول لا يدعو إلا إلى طاعة الله) إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه (أي يعلم ما بطن في سره قبل شعور المرء به) وأنه إليه تحشرون (أي تحاسبون لما تسرون ولما تعلنون لعلمه تعالى بجميع أعمالكم) واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة (أي الذين عصوا النبي فإن الباقين مأخوذون بإفراغ جهدهم في منع ذلك والقيام بغاية النصح للنبي، كما أشار إلى ذلك فيما بعد) واعلموا أن الله شديد العقاب. واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون. يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون﴾ [سورة الأنفال/٢٤-٢٧].

فبين ههنا أن الأمة تعذب بما فعله بعضهم، ولم يمنعهم عنه الباقون فتركوا الحق مخذولا.

وهكذا كان أمر ثمود إذا انبعث أشقاها. وقوله تعالى: ﴿عقروها﴾ نسب هذا الفعل إلى جميع الأمة مع أنه فعل لا يحتمل شركة جميعهم إلا بالمعنى الذي أشرنا إليه.

والوجه ظاهر عند العقل. فإن الإثم صفة القلب. والأعمال الظاهرة من آثاره وشهاداته. فالمستحسن والراضي بالإثم كالذي ارتكبه.

ولذلك ينسب إلى اليهود أعمال آبائهم. وكذلك يعذب الأبناء بفعل الآباء. وفيه سر آخر تجده ببعض البيان له في تفسير سورة نوح، فإنه من المهمات.

(١٠)

سنة الله تعالى في مؤاخذة الأمم

ثم اعلم أن الله تعالى يعفو كثيرا عن الناس ويؤخرهم لكي يتوب من شاء، ويحق على الآخرين كلمة العذاب، كما قال الله تعالى: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دآبة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى﴾ [سورة النحل/٦١]. فكان الله يعذب اليهود، ولكنه لم يسلبهم أعظم نعمه و لم يقطع الحبل عنهم إلا بعد أن امتلأ كأسهم بقتل عيسى عليه السلام، حسب زعمهم، على إثر يحيى عليه السلام. فكان دما ثالثا، كما سيجئ في الفصل الثاني عشر.

وقد علمت في القرآن كثيرا أن الله تعالى برحمته يمسك بالنتائج السيئة عن الناس حسب سنته الحكيمة حتى يحق عليهم كلمة العذاب.

وقد علمت في الفصل (٩) محل قتل الأنبياء والآمرين بالقسط. فالآن نوجهك إلى ما وقع وينبغي أن يقع على الناس بذكر وقائع منوطة به من تاريخ أمة خلت، وهذه الأمة. وفي هذا قال تعالى: ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾ [سورة الأحزاب/٦٢]. أي لهذه سنة أخذ المفسدين الطاغين.

(١١)

مثل ناقة الله في هذه الأمة

فاعلم أنه كما كان في اليهود مثل طغوى ثمود، لهمهم بقتل عيسى عليه السلام وكان مثل ناقة الله لكونه آية بنفسه، كما جاء في سورة الأنبياء: ﴿وجعلناها وابنها آية للعلمين﴾ [الآية/٩١]. فدمر الله عليهم وسلبهم نعمة النبوة، فكذلك في أمتنا مثل ناقة الله على بن أبي طالب، وسلبت الأمة الخلافة لقتله. فكان بعده ملوك، إلا قليل منهم، يرثون

الملك كوراثة الأموال.

وقد أخبر النبي ﷺ عن هذا، وسماهم عضوضا ١٥٤. وكذلك روى أنه قال لعلي رضي الله عنه: "قم يا أبا تراب ألا اخبرك بأشقى الناس أحمر ثمود عاقر الناقة والذي يضربك على هذا (يعني قرنه) فيخضب هذه منها (يعني لحيته).

(١٢)

مثل عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم

فإن قلت إن عثمان رضي الله عنه قتل صبرا، واشرأبت الفتنة بعده، وقتل عمر رضي الله عنه قبلها وكان أول الوهن في الإسلام، وقتل الحسين رضي الله عنه أسوء قتلة وأشنعها، فلم لا تشبههم بعيسى عليه السلام ؟

قلت أما عمر رضي الله عنه فلم تقتله هذه الأمة. ولذلك سر عمر رضي الله عنه حين أخبر أن قاتله نصراني. ولكن رضي به جمع من الأشرار. فكان أول دم و لم يؤخذ به من كان راضيا به. فمثله مثل زكريا عليه السلام الذي قتل بين المذبح والمسجد، فقد قتل عمر رضي الله عنه في المسجد وهو في الصلاة. فلا تعجب مما قال له كعب الأحبار أنه يجد صفته وحليته في التوراة وأنه قد فني أجله. وصفة عمر رضي الله عنه كثير في التوراة. تجد طرفا منها في تفسير قوله تعالى: ﴿ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل﴾ [سورة الفتح/٢٩].

وأما عثمان رضي الله عنه فمثله مثل يحيى عليه السلام الذي قتل فى السجن. فكان دم علي رضي الله عنه دما ثالثا كدم عيسى عليه السلام. فأفعم لهم كأس الشقاء ففاضت بالدماء.

---

١٥٤ انظر المسند لأحمد بن حنبل ١: ١١٦. واللفظ فيه: "سيأتي على الناس زمان عضوض".

وأما قتل حسين ﵁ فهو المصيبة الكبرى على الإسلام وفت شديد في العضد، أو كقرح يدمي إلى الأبد. فما ذلك إلا من أسوء نتائج تلك الشقوة، كما قال زهير يمثل نتائج الحرب بأحمر ثمود:

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم   كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم ١٥٥

وإنما سماه أحمر عاد حسب ما ذكرنا (٣) فكانت واقعة الطف رضاع ذلك الشقاء وفطامه. وكان من غلمانه المشائيم وقائع استباحت دماء المسلمين وأموالهم بغير حق، كما قد حذر النبي ﷺ في خطبة الوداع: "يا أيها الناس إنما المؤمنون إخوة. ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه. ألا هل بلغت، اللهم اشهد. فلا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض".

وقد أخبر الله عن كون الاقتتال من عذاب الله. جاء في سورة الأنعام: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض. انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون﴾ [سورة الأنعام/٦٥].

فبعد قتل علي ﵁ قد لبسهم الله شيعا. وتقاتلت شيعة عثمان وشيعة علي رضي الله عنهما. وأذاق الله بعضهم بأس بعض. ولم تطفأ هذه النار. وكل ما وقع على المسلمين من البلاء فلم يكن إلا من أيدي هاتين الشيعتين وأنواعهما. وقد برأ النبي ﷺ عنهم، حيث قال: ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شئ﴾ [سورة الأنعام/١٥٩].

وكذلك أخبر الله تعالى عن كون الاقتتال من عذابه، حيث قال: ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به (أي

١٥٥ انظر شروح المعلقات .

مما أنزل عليهم) فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾ [سورة المائدة/١٤]. وهذا البحث يتعلق بتفسير سورة الحجرات، فليكفنا ههنا ما ذكرنا منه.

(١٣)

النظر الثاني في ربط السورة بالتي قبلها والتي بعدها

إنما فصل في هذه السورة عقبى الشقاوة بيانا لقوله: ﴿وقد خاب من دساها﴾ [الآية/١٠]، وترك الفلاح مجملا في قوله: ﴿قد أفلح من زكاها﴾ [الآية/٩]. فتجد تفصيلها في السورة التالية.

ولما ذكر الله تعالى في السورة السابقة أن مقصد البيت هو الإيمان، والصبر والمرحمة، والتواصي بهما، وأن الميمنة والفوز للذين عملوا بها، والمشأمة للذين كفروا. ففي هذه السورة ضرب لأهل مكة مثلا على المشأمة والشقوة من ثمود وأشقاها.

فالسورة متصلة بما قبلها وما بعدها. وموقعها موقع سورة الماعون، كما ستعلم. ومع ذلك مستقلة بنفسها، فإنها حوت بيان التكذيب والطغوى. فإن قصرت نظرك عليها حذرت عن هذه الخلة المشئومة. ولكنك إن ضممت هذه السورة بما قبلها وما بعدها اطلعت على أصل هذا الداء وجرثوم هذا الشقاء. وذلك قساوة القلب. فإنها أصل الجهل والشح والطغوى، كما فصلنا في تفسير السورة السابقة.

(١٤)

تأويل قوله تعالى: ﴿ولا يخاف عقباها﴾

كما أن الله تعالى جعل القرآن كتابا مصدقا ومتمما للصحف الأولى، فكذلك جعله مهيمنا عليها وقاضيا فيما اختلفوا فيه، كما قال

تعالى بعد ذكر التوراة والإنجيل: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه (أي قبله) من الكتب (أي الصحف الأولى) ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم (أي ما بدلوا من حكم الله الذي نزل إليهم) عما جاءك من الحق﴾ [سورة المائدة/٤٨]. أي غير تارك لقولهم ما جاءك من الحق الصريح. وكما قال تعالى: ﴿إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون﴾ [سورة النمل/٧٦].

فترى القرآن ربما يرد وينفي أمرا يكبر علينا أن يتفوه به أحد ولكن قد زعمت به اليهود وأدخلته في كتبهم، كما قال تعالى: ﴿ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام﴾ [سورة ق/٣٨]. فهذا تصديق ما جاء في التوراة. ثم قال: ﴿وما مسنا من لغوب﴾ [سورة ق/٣٨]. فهذا رد ونفي لما كتبوا في التوراة أن الله استراح في اليوم السابع من جميع عمله[١٥٦]. ولذلك أمثلة كثيرة. فأسلوب القرآن أن يدخل في نظمه ما يرد زعما أو يسد وهما.

فإن تبين لك هذا الأمر فاعلم أن من سوء ظن الناس بالله تعالى أنه ربما يندم على ما فعل من رحمة أو نقمة، كما ترى ذلك فيما أدخلت اليهود في التوراة. ففي الأصحاح السادس من التكوين:

"فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه" [١٥٧].

وكذلك بعد الطوفان:

"وقال الرب في قلبه لا أعود ألعن الأرض أيضا من أجل الإنسان لأن تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثته. ولا أعود أيضا أميت كل حي

١٥٦ انظر التكوين ٢: ٢ .

١٥٧ التكوين٦: ٦ .

كما فعلت" [١٥٨].

والقرآن يعلمنا أن الله تعالى يفعل ما يريد بالحكمة والرحمة. فإن أهلك قوما واستخلف آخر لم يفعل إلا على حسب الحكمة والقدرة. لا خوف هناك، ولا طمع، ولا تقصير، ولا شطط. وباطل ما زعمت الجهلاء. فقوله تعالى: ﴿ولا يخاف عقباها﴾ [الآية/١٥] من هذا النمط.

وكثر في القرآن مثل هذه الأمور الواضحة عندنا ببركة القرآن؛ المشتبهة عند غيرنا لكونهم في غطاء عن نوره البازغ. فالحمد لله تعالى على ما هدانا إلى صراطه المستقيم وأعطانا من الذكر الحكيم.

١٥٨ التكوين ٨: ٢١ .

تفسير سورة الشمس

فهرس مطالب الفصول